النفقات التي تؤديها انكلترا سنوياً سبعة ملايين ونصف مليون جنيه . وزد عليهِ ما يفسدهُ المجرمون في البلاد و يتلفونهُ من اموال العباد ومثل هذا المجموع يوازي نفقات حرب من الحروب الهائلة وربما فاق عشر خزج الحكومة ولو أُنفق هذا المال في اعمال خيرية او مشروعات نافعة لعاد باموال طائلة وافاد البلاد وسكانها فوائد ادبية ومادية جزيلة

ومن نكد الدنيا ان الجرائم والحروب لا يرجى ان تخلو عنها امة او تنجو منها تمام النجاة على ان الحرب صارت في هذا العصر ابعد وقوعاً بين الدول لارتباطهن بقوانين اذا رُوعيَت امتنع على دولة منهنَّ ان تشهر حرباً على دولة أُخرى فضلاً عن ان الامم المتمدنة اصبحت راغبة عن الحرب كارهة لها نازعة الى السلم تائقة اليهِ. ولعلهم يعرضون بعد قرن او اكثر عن الحرب ويستعيضون عن تحكيم المدفع والحسام بتحكيم العقول والاقلام . اما حظ الجرائم فلا يكون كحظ الحروب ولا يقاربهُ قبل الوقوف على اسبابها التي يقسمونها الى ثلاثة اقسام . الاول يتعلق بالمكان والاقليم والفصول والثاني بالمجتمع من حيث احوالهُ السياسية والاقتصادية والادبية والثالث يتعلق بالشخص ومنبتهِ ونسبهِ وعمرهِ وجسمهِ وعقلهِ وجنسهِ . وهذه الاسباب وان كانت لا تؤثر غالباً الاَّ مرتبطاً بعضها ببعض فحقيق بالناظر فيها الباحث عنها ان يتروَّى في كل قسم من اقسامها الثلاثة و يبحث عنهُ على حدةٍ لتتجلَّى لهُ غوامضهُ وتنكشف اسرارهُ

محمد ابو عز الدين

أكرم الكرماء

البارون هرش وزوجتهُ

لا غرابة اذا عدنا الى الكلام على اكرم الانام ولو امسى هو وزوجتهُ عظاماً رميماً لان هبة كارنجي التي دوت بذكرها النوادي العلمية والادبية مليونين من الجنيهات دفعةً واحدة لمدارس اسكتلندا اعادت لنا ذكرى كريم آخر رأينا من الاجحاف ان لا نصف هباتهِ وهبات زوجتهِ بالاسهاب

هو البارون مور يس ده هرش اكبر اولاد البارون يوسف هرش الذي رقَّاهُ الملك لويس الثاني ملك بافاريا الى رتبة البارونية لاجل امانتهِ لعرشهِ وخدمهِ الكثيرة النافعة لهُ . كان جدُّهُ تاجراً بالبقر فاثرى وصار ملك بافاريا يستدين المال منهُ . قيل سألهُ الملك مرةً كيف اثريت وانت تتاجر بالبقر فقال اثريت لاني اتاجر بالبقر ومع البقر

ولد البارون موريس هرش في مونخ عاصمة باڤاريا في ٩ دسمبر سنة ١٨٣١ ودرس في بروكسل عاصمة البلجيك ولما بلغ الثامنة عشرة من العمر دخل بنك بيشوفسهيم وغولدشمت وهما من اكبر صيارفة بروكسل فظهرت حالاً نجابتهُ ومقدرتهُ المالية واقترن بابنة بيشوفسهيم وهي اصغر منهُ بسنتين فاقترن بهِ السعد باقترانهِ بها لانها كانت كملاك يحرسهُ ويرشدهُ ويبثُّ البهجة والحبور في حياتهِ

ولم يمضِ عليهِ زمن طويل حتى صار المدير لذلك البنك والموسّع لاعمالهِ وكان شديد الزكانة قوي العزيمة مقتدرًا على ادارة الاعمال وتنظيمها فانشأ سكة الحديد من بودابست الى وارنه على البحر الاسود وكان العمل ثلاثة اقسام أُخذت بالقرعة واصابت قرعتهُ القسم الاصعب منها لكنهُ ربح منهُ ربحًا طائلاً والاثنان الآخران خسرا لانهُ كان امهر منهما في ادارة الناس والاعمال

وافلس المسيو دينسو المالي البلجي العظيم سنة ١٨٦٩ فابتاع البارون هرش منهُ سنذات سكة الحديد التركية وكان المظنون انها ابخس ممتلكاتهِ قيمة واقلها جدوى لكنهُ احسن ادارتها حتى صارت اساس ثروتهِ . وظلَّ ينشئُ سكك الحديد متغلبًا على المصاعب الطبيعية والعراقيل السياسية حتى قدّرت ثروتهُ بعد خمس عشرة سنة بعشرة ملايين جنيه الى ثلاثين مليونًا

وكانت هذه الثروة الطائلة في يدهِ ويد زوجتهِ وسيلة لاغاثة الفقراء والمظلومين من ابناء ملتهِ فلما ورد اليهود من روسيا عرض على حكومة الروس مليونين من الجنيهات لتنفقها على التعليم حاسبًا ان السبب الاكبر لطردهم من بلاد الروس هو الجهل الضارب اطنابهُ فيها فاذا انتشر التعليم والتهذيب زال منها التعصب والتحمس . فرفضت حكومة الروس هذه الهبة السنية

وكان يحسب اليهود من اقدر الناس على الفلاحة والزراعة بناء على ما رأى منهم في بلاد المجر . قال " ان اكثر الفلاحين منهم هناك حتى ان خدّمة الدين الكاثوليكي يعتمدون عليهم فقط في زراعة اوقاف الكنائس وكل اصحاب الاملاك الكبيرة يفضّلون اليهود لاجتهادهم واستقامتهم ومهارتهم فهذه الامور دعتني الى الاهتمام باصلاح شأنهم وسيظهر انهم لم يفقدوا الميل الى الزراعة الذي امتاز بهِ اسلافنا وسأبذل جهدي لاهيئ لهم اوطانًا اخرى في بلدان مختلفة حيث يستطيع الفلاّح ان يكون مستقلاً بحرث ارضهِ ويستفيد من جدهِ واجتهادهِ "

فابتاع الاراضي الفسيحة في جمهورية ارجنتين وولاية نيوجرزي باميركا واماكن اخرى واعطاها لابناء امتهِ ووهب جمعية استعمار اليهود مليونين من الجنيهات واعطى اليهود الروسيين

المهاجرين الى الولايات المتحدة الاميركية نصف مليون جنيه لكي يتعلم ابناؤهم ويتهذبوا ويصيروا مثل الاميركيين . فمضى كثيرون منهم الى الولايات المتحدة الاميركية واستوطنوها وزرعوا الارض وانشأوا المعامل وربوا المواشي ولهم في ولاية نيوجرزي مدرسة صناعية ومدرسة زراعية

وقد يُظَن لاول وهلة ان رجلاً يبلغ اهتمامهُ بامر امتهِ وملتهِ هذا المبلغ لا يهتم بغيرها لكنَّ البارون هرش لم يكن كذلك بل كان يعتمد على الاكفاء من كل الامم ويهتم بالمساكين من كل الطوائف . وهو الذي بعث بالمؤلف هال كاين الى روسيا يبحث عن احوال العامة من شعبها وما يحتاجون اليهِ وبعث اليها ايضاً بالكاتب الشهير ارنلد هوَيت (مكاتب جريدة التيمس) لهذه الغاية . كتب المستر هويت عن البارون هرش " انهُ يشتغل في امر روسيا وتوزيع الصدقات فيها من الساعة السادسة صباحاً . وانا اكتب هذه السطور الآن والى جانبي ثلاثة مجلدات كبيرة كلها مكاتيب منهُ تدلُّ على اهتمامهِ الشديد ورثائهِ للمحتاجين والمظلومين . وقد تصدَّق باكثر من المال تصدَّق بوقتهِ وقواهُ العقلية لنفع ابناء ملتهِ "

وكانت زوجتهُ تشاركهُ في كل اعمالهِ وصدقاتهِ . قال المستر اسكار ستروس سفير الولايات المتحدة في تركيا "انها اكبر مساعد لزوجها وكان يستشيرها في كل امر ويخبرها بكل شيء وكانت تقرأ مكاتيبهُ وتساعدهُ في كتابة اجوبتها وترافقهُ في اسفارهِ وتشاركهُ في امانيهِ ولم تكن تشاركهُ في يأسهِ لانهُ لم يكن ييأس من امرٍ قط . وهي امرأة فاضلة انيسة المحضر رقيقة القلب كريمة جداً انفقت جانباً كبيراً من ثروتها الخصوصية على المدارس والملاجئ والمستشفيات وكانت تزورها بنفسها وتهتمُّ بادارتها . رأيتها في القسطنطينية تزور احياء الفقراء يوماً بعد يوم وتساعدهم بيدها مسلمين كانوا او مسيحيين او يهوداً من غير تمييز بينهم "

وقصَّ المستر ستروس على السيدة سارة بولتن القصة التالية قال اخبرني رئيس مهندسي سكة الحديد التي انشأها البارون هرش ان اول قسم من السكة وصل من اسوار القسطنطينية الى قرية تبعد عنها عشرة اميال وكانت الحكومة العثمانية قد عينت لهُ مكان المحطة في وسط القرية واشترطت على نفسها ان تشتري مكان المحطة وتهدم البيوت التي فيهِ وتسلمهُ للبارون هرش . فقام السكان ونادوا بالويل والحرب مخافة ان لا تدفع الحكومة اليهم شيئاً من ثمن بيوتهم وارضهم . وبلغ الخبر زوجة البارون هرش وهي في الاستانة فسألت زوجها عن جليتهِ فقال هو كما بلغكِ ولكن الامر ليس في يدي بل في يد الحكومة العثمانية والشروط التي بيني وبينها تقضي عليها ان تبتاع البيوت والاراضي من اصحابها وتسلمنيها . فقالت ان لم يكن

الامر في يدك فهو في يدي كم ثمن هذه البيوت والاراضي فقال نحو مليون فرنك فكتبت تحويلاً على البنك بمليون فرنك وارسلت وكيلها فدفع الى الناس ثمن بيوتهم وما يملكون وطيَّب خواطرهم . وبعد ايام أُحتُفل بفتح القسم الاول من سكة الحديد وكان اولئك المساكين اشد الناس جذلاً وحبوراً

وانشأت مدارس في القسطنطينية قبل مغادرتها انفقت عليها ٢٥ الف جنيه ولها ولزوجها مدارس كثيرة وملاجئ في اكثر بلدان المشرق

ومن صدقات البارون هرش الكثيرة اربعون الف جنيه بعث بها الى امبراطورة الروس على اثر الحرب الروسية التركية لتنفق على المحتاجين ومليون جنيه لتنفق على اربعين مدرسة في غاليسيا يتعلَّم فيها الاولاد من كل المذاهب لانهُ كان يقول اني اسمع صوت المعوز فلا اسأل أهو من ملتي او من غير ملتي ولكن لاعجب اذا سمعتُ اكثر هذه الاصوات من ابناء ملتي وبذلت جهدي في اغاثتهم

وقد قدَّر المستر ستروس الهبات التي وهبها البارون هرش في حياتهِ باكثر من خمسة عشر مليون جنيه

وكان لهُ قصور كثيرة في لندن وباريس وبلاد المجر وبعضها من القصور الملكية القديمة ومنها قصر في باريس بنتهُ الامبراطورة اوجيني لدوكة البا ولم يكد البارون هرش ينزل فيهِ هو وزوجتهُ سنة ١٨٨٧ حتى مرض ابنهما وحيدهما وتوفي فيهِ وتركهما مصدوعي الفؤاد لكن وفاتهُ زادت رغبتهما في مؤاساة الحزانى والبائسين . وكان متجملاً بكثير من مناقب ابيهِ وامهِ عاكفاً على عمل الخير مغرماً بالخيل عندهُ كثير من الجياد الكريمة فباعها ابوهُ بعد موتهِ وتصدَّق بثمنها كلهِ وبكل ما ربحتهُ خيلهُ في السباق وهو مئة الف جنيه . ولما مات باعت زوجتهُ جيادهُ وتصدَّقت بثمنها كما فعل هو بجياد ابنهِ

وكان البارون هرش يضع صدقاتهِ في موضعها حتى تنتج عنها الفائدة المقصودة . قال البرنس بسمارك في هذا الصدد " ان هرش هو الرجل الوحيد الذي لا يفقر الذين يتصدَّق عليهم " . وكان يأتيهِ كل يوم اربع مئة مكتوب في طلب الصدقات وبعضها من ابناء الملوك وهؤلاء كانوا يستدينون منهُ ولا يوفونهُ غالباً فيعدُّ ما يعطيهم اياهُ صدقةً

وليلة العشرين من ابريل سنة ١٨٩٦ قضى نحبهُ بغتة بالسكتة الدماغية بعد ان عاش سنين كثيرة مثال الهمة والاجتهاد والاحسان وعلَّم الاغنياء بسيرتهِ وتدوتهِ كيف ينفعون الفقراء ويكونون بركة لنوع الانسان لا لعنةً عليهِ

وبقيت زوجتهُ ثلاث سنوات بعدهُ سائرة في خطتهِ خطة التصدُّق . قالت لامرأة زارتها في فرساليا ان الغنى الوافر عبء ثقيل على صاحبهِ وغاية ما اطلبهُ وما ارجوهُ ان اتمكن من انفاق اموالي كلها حتى يحصل من انفاقها اكبر نفع لاكبر عدد من الناس

ولم يمضِ سنة على وفاة زوجها حتى ارسلت اكثر من مليون ريال الى مدرسة الصنائع التي انشأها في نيويورك حيث يتعلَّم شبان اليهود الذين هاجروا من روسيا . ولم تمضِ ثلاث سنوات على وفاتهِ حتى انفقت على الصدقات ثلاثة ملايين من الجنيهات . وجملة ما تصدَّقت بهِ هي وزوجها في حياتهما اكثر من خمسة وعشرين مليوناً من الجنيهات

كتب المستر ستروس " ان حياة البارونة هرش مثال للايثار وانكار الذات فان شغلها الشاغل كان كيف تستطيع ان تتصدَّق على الناس من غير ان يشعروا بالذل في نفوسهم وكثيراً كنت اساعدها في فتح المكاتيب التي ترد اليها وكان متوسط ما يرد اليها في اليوم خمس مئة مكتوب من كل اقطار المسكونة وكان لا بدَّ من قراءة كل مكتوب منها واختيار ما تظن اصحابهُ اهلاً للمساعدة فتختار المكاتيب التي يجب ان يجاب اصحابها وتملي على الكتبة وتقضي بضع ساعات كل يوم في اجابة السائلين وارسال التحاويل المالية . هذه هي صدقاتها الافرادية غير صدقاتها العمومية الجمهورية كهباتها للمدارس والمستشفيات وما اشبه

" وكانت على غاية الوداعة والرصانة قلبها قلب ملاك ورأسها رأس فيلسوف قال زوجها لي مرة انها لو كانت زوجة رجل فقير لكانت مثالاً لنساء الفقراء في الاجتهاد والتدبير

" لما كانت فتاة في بيت ابيها كانت سكرتيراً لهُ في ما يتعلق بصدقاتهِ الكثيرة التي كان يتصدَّق بها ولما تزوجت صارت سكرتيراً لزوجها في صدقاتهِ وكانت تحسن الكتابة بالانكليزية والالمانية والفرنسوية ولم تقتصر على ان تكون سكرتيراً لزوجها في كل اعمالهِ الخيرية بل كانت تحضُّهُ دائماً على عمل الخير وترشدهُ الى اساليبهِ . وقد كتبت اليَّ مرة تقول ان الثروة الوافرة مزية كبيرة ولكنها وديعة في يد صاحبها يُطلَب منهُ ان يستعملها حيث يكون منها النفع الاعظم

"ولم تكن تنفق على نفسها اكثر مما تنفقهُ امرأة من اواسط الناس ولا كانت تهمل ترتيب بيتها وخدمها. وكانت تعمل اعمالها على غاية الدقة والانتظام. كنت راكباً معها مرةً في ضواحي باريس فاوقفت المركبة بغتة وطلبت من احد خدمها ان ينزل ويفرّق على بعض الفقراء مبلغاً من المال ثم التفتت اليَّ وقالت ان الذين درسوا احوال المساكين لا يستصوبون هذا النوع من الاحسان وانا اعلم انهم مصيبون ولكن ما حيلتي وانا امرؤ بان اعطي واريد ان اسرَّ نفسي

مثل غيري . وكانت تقول هذا القول على غاية الدعة والبساطة "

توفيت في مدينة باريس في غرة ابريل سنة ١٨٩٩ وكان الاحتفال بدفنها بسيطاً جدًّا واحتفل بجنازتها في اماكن كثيرة في اوربا واميركا

ومن صدقاتها المعروفة

٤٠٠٠٠٠ جنيه لجمعية الاستعمار اليهودية في لندن

٤٠٠٠٠٠ " للجمعية الخيرية الاسرائيلية في باريس

٤٠٠٠٠٠ " معاشات لمستخدمي سكة الحديد الشرقية

٢٠٠٠٠٠ " ليهود بودابست

١٢٠٠٠٠ " لجمعية الاوصياء في لندن

١٢٠٠٠٠ " لمدرسة هرش في جاليسيا

١٢٠٠٠٠ " لجمعية الاحسان في فينا

٠٨٠٠٠٠ " لبناء مستشفى للاولاد المسلولين في الرڤيرا

٠٨٠٠٠٠ " لبناء ملجاء للنساء الشريفات اللواتي افتقرن

٠٧٠٠٠٠ " لدار الناقهين في مستشفى هسند بلندن

٠٤٠٠٠٠ " لجمعية الاحسان

هذه الصدقات الكبيرة اما الصدقات الصغيرة التي تقلّ الواحدة منها عن عشرين الف جنيه فكثيرة جدًّا و يبلغ مجموع ما تصدّقت به هي وزوجها اكثر من خمسة وعشرين مليون جنيه كما تقدّم ولعلها كل ثروتهما او اكثرها

هذا هو الكرم الحميد وهذه هي المناقب التي يفتخر بها الرجال والنساء . والرجل وزوجته شرقيان من بني اسرائيل من ارض فلسطين ولو كانت اوربا دارهما ومسقط رأسيهما

رواية أمينة

الفصل السابع

نهضتُ في الصباح وانا مصابة بصداع شديد حتى لا اكاد استطيع الوقوف . فقد مرَّ عليَّ ليل لا اطول منهُ كنت احاول فيهِ جمع افكاري فاراها كالفرس الجموح . ونهضتُ مئة مرَّة من سريري اذ كنت افكّر بكلمة سمعتها او حركة رأيتها ممَّا تتألم لهُ النفس ثم احاول ان امحو ذلك من ذهني فلا اجد الى محوهِ سبيلاً . ولم يكن يمر امام ذاكرتي الاَّ صوَر المشهد الاخير الذي